# الفصل الثانى

## موقف المسلم من الدين
## ( السجود )

## ١

يروى الإمام مسلم - رضى الله عنه - فى صحيحه ، عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى - خادم رسول الله ﷺ، ومن أهل الصُّفَّة، رضى الله عنه - قال:

**« كنتُ أَبِيتُ مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال: سَلْنِى .**

**فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .**

**فقال : أَوَ غير ذلك ؟**

**قلت : هو ذاك .**

**قال : « أعنِّى على نفسك بكثرة السجود » .**

السجود - إذن - مما يُعين على ترويض النفس ، لتتزكَّى ، وهو بذلك من الوسائل التى توصِّل إلى الجنة .

وفى هذا المعنى ، يروى الإمام مسلم أيضاً ، عن أبى عبد الرحمن ( ثوبان ) مولى رسول الله ﷺ ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« عليكَ بكثرة السجود ، فإنك لن تسجدَ لله سجدةً ؛ إلا رفعكَ الله بها درجةً ، وحَطَّ عنك بها خطيئةً ».**

والسجود الذى يريده رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته وودُّه ، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال وهذه العظمة ، والانقياد المطلق لرحمة الله التى تتمثل فى الرسالة الإسلامية: أوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، فى تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هى رحمة للعالمين؛ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

فإذا كان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلُّل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله سبحانه وتعالى ، وكان بذلك سبيلاً إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة ، وهو القرب من الله ؛ يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾(٢).

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذا المعنى :

«أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربهِ ، وهو ساجد ».

ولقيمة السجود الكبيرة عُبِّرَ عن الصلاة أحياناً بالسجود ، فصلاة الضحى يسمُّونها « سجود الضحى»..

ومن أجل هذه القيمة أيضاً مدح الله من يعبِّرون عن خضوعهم لآياته واستجابتهم لأمره ، بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٣).

والذين هداهم الله واجتباهم :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾(٤) .

ومن صفات عباد الرحمن - التى يزكِّيهم بها - أنهم :

﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾(٥) .

* * *

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧.
(٢) سورة العلق : ١٩ .
(٣) سورة السجدة : ١٥ .
(٤) سورة مريم : ٥٨ .
(٥) سورة الفرقان : ٦٤ .

## ٢

على أن حادثة من الحوادث قَصَّها القرآن فى غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعانى الخاصة بالسجود ، تلك هى حادثة آدم والملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾(١).

بهذا النبأ حدَّث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيبرؤه سبحانه ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ..

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾(٢) .

لم يشذّ منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس ، وهو كائن يختلف عن الملائكة ، وعن الإنسان ، إنه من فصيلة الجن .

كان يعبد مع الملائكة ، ويسبِّح معهم ، حتى لقد كان يُلقَّب (بطاووس العُبَّاد) لكثرة عبادته وتفانيه فى العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهى بالسجود لم يسجد : لقد أَبَى ، والإباء ضد السجود ، واستكبر ، والاستكبار ينافى الخضوع.. ويتحدث القرآن عن ذلك فى صراحة فيقول :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾(٣).

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤).

هذه قصة معروفة ، نمرُّ عليها فلا نكاد نعيرها التفاتاً ، بيد أنها جديرة بالتأمل

---

(١) سورة الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة الحجر : ٣٠ .

(٣) سورة الحجر : ٣١ .

(٤) سورة ص : ٧٤ .

والاعتبار ، والقضايا التى نريد أن نذكرها عظةً واعتباراً ، وهى فى نفس الوقت ذات دلالة عميقة هى ما يلى :

١- لقد صدر أمر إلهى بالسجود ، فاستجاب له طائفة ، فنعموا برضوان الله، وشذَّ فردٌ ، فطُرد من رحمته سبحانه .

٢- إنه طُرد لأنه لم يستجب للأمر الإلهى مع علمه بأنه أمر إلهى.

٣- كان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء فى نفسه ، وعن تمرد فى فطرته .

٤- لم تُلْغِ عبادته كبرياءه ، فهى -إذن - لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً لنفت الكبرياء وأزالته . إنها - إذن - لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء : لا يجتمعان .

٥- هذا الكبرياء ؛ كما تمثَّل فى مخالفة الأمر الإلهى ، تمثَّل فى المحاولة التى أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلاً :

﴿... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (١).

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ، ومنطق الكبرياء ، فسجوده لآدم ليس عبادة له وإنما عبادة لله ، لأنه خضوع لأمر الله وحسب.

٦- الموقف السليم - إذن - هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها : من أنه عند الأمر الإلهى يجب أن تكون الاستجابة فورية ، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه - فى صراحة - كلمة « إذ» فى قوله تعالى :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾(٢).

وهذه الفورية طبعاً هى فى كل أمر بما يناسب وضعه الزمانى والمكانى .

٧- والقضية التى نختم بها هذه القضايا، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصة هى أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول ؛

---

(١) ،(٢) سورة الأعراف : ١٢ .

فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافى للرقىّ فى مدارج السموّ الروحىّ ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن ، ولا معنى - إذن - بعد هذا الأمر الإلهى للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، لأن يختلف علماء الإسلام فى المفاضلة بين الإنسان والـمَلَك ..

ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهى إلى حد :

**«ما وَسِعَنى أرضى ولا سمائى ، ولكنْ وَسِعَنى قلبُ عبدى المؤمن»** .

باب الفيوضات الإلهية - إذن - : مفتوح على مصراعيه ، والقرب منه ميسور . وإذا سجد الإنسان لله رفعه الله إليه ، وقرَّبه منه ، وغمره برضوانه . أما المبدأ المهم ، الذى نريد أن يجعله كل مؤمن نُصْبَ عينيه ، فهو أن الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود ، وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم .. ومحمداً عليه الصلاة والسلام . إنه يعرف أن لا إله إلا الله ، ويعرف أن محمداً رسول الله . ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسلُ الله ، ومعرفته بهذه المسائل هى من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين ..

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه سجود ، فإذا لم يتأتَّ السجود فلا إيمان . يشهد لذلك قوله تعالى :

**﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾**(١).

لقد كان سعيد بن جبير - رضى الله عنه - يقول : « ما آسَى على شىء من الدنيا إلا على السجود » .

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمُّونه « السَّجَّاد» لكثرة سجوده. وقد كان يكثر من السجود- كما هو المتبادر إلى الذهن - ليكون على النقيض من إبليس .

ونختم هذه المعانى بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله ﷺ ـ معه فى حال حياته ، وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته - :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (١).

إنه النور الذى يشرق على جباههم، لسجودهم لله، وهو الغُرَر التى ستكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

* * *

## ٣

يتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل فى أوامره - سبحانه وتعالى - أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل إنما هى: كبرياء، وهى : إبليسية .

وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إبليس فى المجتمع الإنسانى : إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحى الإلهى جملةً ، أو يحاولون أن يزنوا الوحى بميزان العقل ، فيرفضون ويقبلون ويؤوِّلون ما شاء لهم الهوى ، ويوفِّقون، ويُوجِدون بعقولهم المآزقَ - التى يزعمونها مشكلات نظرية عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

وخلفاء إبليس هم أولاً - وبالذات- الملاحدة :

إنهم- على نسق التعبير الجارى - إبليسيون أكثر من إبليس نفسه ؛ ذلك أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثاً ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ؛ ففاقوا زعيمهم ، ولكنهم بتفوقهم على زعيمهم قد أرضوا غروره ؛ ذلك أنه خاطب الله قائلاً :

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(١).

ولقد وصل إبليس إلى مراده تامًّا فى طائفة الملاحدة .

والإلحاد درجات : وأَخَسُّ درجات الملحدين لا شك إنما هى درجة هؤلاء الذين اعتقدوا - على حد تعبير الغزالى - : « أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً » .

وإذا سألت هؤلاء : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾(٢)؟

كانت حيرتهم فى الإجابة كافية فى البرهنة على أنهم لا يتَّبعون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا -إذن -إلا عبيداً لإبليس.

وهناك الإلحاد بإنكار البعث .

والإلحاد بإنكار الرسالة .

بيد أن هؤلاء وأولئك وتلكم : يَصْدُقُ عليهم قول الله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣).

والطريق الذى ينقذ به هؤلاء أنفسهم وقلوبهم إنما هو : المبادرة بالسجود لله ، لا للهوى المُرْدِى ، فيتكشَّف الله لهم فى كل شىء ، وتظهر لهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(٤).

وإن من أحدث اختراعات إبليس فى هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب

---

(١) سورة الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

(٢) سورة الطور : ٣٥ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٣ .

(٤) سورة فصلت : ٥٣ .

المسمَّى بالوجودية ؛ وهو مذهب يدعو كل إنسان لأن يحقق وجوده حسبما يرى وتبعاً لما يريد ، غير متقيِّد بعُرْف ، ولا عادات ، ولا تقاليد ، ولا دين ، ولا أوضاع أيًّا كانت ، وهو - إذن - يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهى إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله أحد كبار الكتَّاب الغربيين :

« إن الوجوديَّ مثله كمثل الكلب الذى يجرى دائراً حول نفسه ليمسك بذنبه، فلا هو يدرك ذنبه ولا هو يقف عن الجرى ، وهى لعبة يلعبها الكلاب حينما يجدون الفراغ فيلهون بما لا نتيجة له » .

على أن هذا المذهب الوجوديَّ قديم ؛ إذ إنه «المذهب السوفسطائى» اليونانى ، وهو مذهب يظهر دائماً فى عصور الانحلال ، وفى البيئات المنحلَّة ، ولا وجود له فى عصور الجدِّ ، ولا فى البيئات الجادَّة ؛ ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادَّة لا تبيح لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب - حينما تلهو الكلاب - فى الجرى وراء أذنابها ليمسكوا بها .

فالوجودية - إذن - اختراع إبليس ، لإخراج طائفة من البشر عن نطاق السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

خلفاء إبليس - ثانياً - هم طائفة الفلاسفة العقليين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية - مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافها وتزيين غاياتها - ليست إلا محاولة تحكيم «العقل» فيما أتى به «الوحى».

وهى من غير ريب تريد أن تخترع عقليًّا ما فرغ منه «الوحى» فى قضاياه ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلى بجوار الدين الإلهى، وهذا الدين العقلى يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف فى هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهى .

فإذا كانت البيئة متشبعة بالدين الإلهى ، يغمر قلبها الإيمان ، وتغمر وجدانها

الهداية ، حاول المتفلسفون - فى طريقة إبليسية - أن يوفِّقوا بين الدين والفلسفة.

ومعنى هذا أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق فيما يأتون وما يدعون ؛ ذلك أنهم- قلوبهم وأفئدتهم - هواء .

وإذا كان الاتفاق بينهم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحى والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير فى ركابه إلا أتباع إبليس .

الفلاسفة - إذن - لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التى لم تسجد لله إلا شكلاً ، فإنها طائفة المعتزلة من علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على تحكيم العقل فى الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال (سبحانه وتعالى) ويحرِّمون عليه إتيان بعضها ( سبحانه وتعالى ) ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرِّعين لله ( سبحانه ) يُلزمونه سلباً ويُلزمونه إيجاباً ، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (١).

ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه : كالذات الإلهية ، والصفات ، والقدر . وكان لابد - وقد اتَّبعوا أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا وتذهب بهم الأهواء كل مذهب ، فكانوا فِرَقاً وأحزاباً شتَّى ، لا تكاد تدخل تحت حصر .

وكل مَنْ نَهَجَ النهج العقلى فى الدين ، فى العصر الحاضر ، إنما هو تابع من أتباع المعتزلة ، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده ، إنما هى

---

(١) سورة فاطر : ٨ .

مدرسة اعتزالية فى مبادئها وأصولها ، وهى مدرسة اعتزالية فى غاياتها وأهدافها؛ ذلك أنها تضع قضايا الدين فى ميزان عقلها ، فتنفى وتُثبت ، حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات .

والمدرسة العقلية فى الدين ، أيًّا كانت وفى أى مكان وُجدت ، وفى أى زمان نشأت - لم تسجد لله سجودَ خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل ، وعبدت العقل فتفرقت إلى ما لا يكاد يُحصَى من الفِرَق ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾(١) .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله وحده ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين فى العلم ؛ إذ الراسخون فى العلم هم دائماً مؤمنون ساجدون لأمر الله ، وإليهم تشير الآية الكريمة :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(٢) .

ومن البديهىّ أن المؤمن الحقيقى هو وإبليس على طرفى نقيض، ويرسم الله (سبحانه وتعالى) صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإبليسية على تفرُّقها واختلافها ، ويبين جزاء المؤمنين عنده فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣) .

* * *

(١) سورة النساء : ١١٥ .

(٢) سورة الزمر : ٩ .

(٣) سورة السجدة : ١٥ - ١٧ .